د. مؤيد آل صوينـــت
جامعة المستنصرية ، كلية التربية ،قسم اللغة العربية

1- بات وتكثيف حضور الأفكار في الذهن ، وربما كان الاستشهاد أداة لتحويل القاعدة من طبيعة مجردة إلى أخرى محسوسة ، ولعل القرآن الكريم فيما يقدم لنا من أمثلة حجاجية أهم مصدر لهذه الأشكال الحجاجية[31] .

2- الحجة التداولية : وهي التسمية المطلقة على الربط بين المقدمة والنتيجة بالانتقال من إحداهما إلى الأخرى في تسلسل معين ، وهي الحجة التي تضطلع بدور مهم في تثمين الأعمال سواء في وضعها الحاضر أم المستقبلي .

التقنيات الحجاجية

تتطلب العملية الحجاجية من أجل ترسيخ الخطاب في جمهور المتلقين جملة من الآليات وتستدعي جمعاً من الوسائط الاقناعية تأخذ سمة التثبت والاستقرار ، بما أن التقنيات الحجاجية كيانات مجردة يشغلها المحاج عمله من القيم والحقائق حتى تصبح فاعلة في الخطاب موّجهه حركته ، تتجلى قصديتها في الافعال الحجاجية التي ينجّز عنها تبديل عقائد الجمهور وتوجيه تصوراته العقدية الرمزية والانطولوجية . ويقود اختبار المعطيات والحجج والمقدمات وإحضارها في مسار الخطاب إضافة إلى تجويد عرضها وتحسين بسطها ، إلى جعل الخطاب مقنعاً ، فاعلاً ، يبدل ويغير ، يعلي ويحط ، يشرع ويدحض ويعتمد الخطاب في الحجاج على تقنيات مخصوصة لا تختص بمجال من المجالات دون غيره ، فهي مطواعة حسب استعمال المرسل لها، إذ يختار حججه وطريقة بنائها بما يتناسب مع السياق الذي يحق بخطابه ، ونود أن نذكر هنا ان الفصل بين أطر الحجاج وتقنياته لا يعدو أن يكون سوى فصل أجرائي الغاية منه تمكين المتلقي من الوقوف على مفهوم الحجاج وطرائق التعبير المكونة له .

وقد نظم من اشتغل بالحجاج من المنظرين تقنيات الحجاج وفق طريقتين من طرائق الربط :

1- الطرائق الاتصالية Procedes de Liason – والمقصود بها الطرائق التي تقرب بين العناصر المتباينة بدءاً وفي الأصل ، وتتيح إقامة ضرب من التضامن بينها لغاية هيكلتها أي إبرازها في هيكلية أو بنية واضحة لغاية تقويم أحد هذه العناصر بوساطة الآخر تقويماً ايجابياً أو سلبياً .

2- الطرائق الانفصالية La dissocia tion des motions القائمة على الفصل بين المفاهيم المعطيات وهو ما ينجم عنه توليد حقائق جديدة ينشئها المحاج بمفعول ما أجراه على تلك المعطيات وما مارسه على تلك القيم من فصل تتحكم مقولتا الظاهر apparence والحقيقة Realite .

أولاً/ الطرائق الاتصالية : وتنقسم إلى عدّة حجج ، أهمها :

1- الحُجَج شبه المنطقية : التي تعتمد في قوتها الإقناعية على بعض البنى المنطقية مثل التناقض ، والتماثل التام أو الجزئي وقانون التعدية ، وتوظف الحجج شبه المنطقية مضموني التناقض وعدم الاتفاق ، فالتعارض هو اجتماع حكمين متناقضين في فرضية أو خطاب ما ، والتناقض غالباً مايكون جلياً يسهل كشفه ، أما كشف التعارض فمثير للسخرية ، لذا اعتبر (بيرلمان) السخرية أو الهزء من أهم الأسلحة الحجاجية .

أما التماثل التام فمداره على التعريف الذي يكون فيه المعرِّف والمعرّف متماثلين لفظاً ، الأمر الذي يجعلنا نعتبر اللفظ الثاني محمولاً على المجاز، حتى لا تكون العبارة الثانية حشواً أو تحصيل حاصل ، ويضرب الحجاجيون مثلاً لهذه الصيغة القائمة على التماثل بالمثل المعروف في قولنا ((المرأة هي المرأة)) مع التأكيد أن هذه الصيغ لا تكتسب قيمتها الحجاجية إلا في مقامات خاصة . وتقوم حجج التعدية على استنتاج علاقات انطلاقاً من توظيف قيمة عنصر ثالث يتم المرور عبره لتأكيد صدق العلاقة بين العنصرين الأول والثاني ، ويضرب لذلك مثال . ((عدو عدوي صديقي)) فالطابع شبه المنطقي لهذه الحكمة يدعم ما يمكن أن يستنتج منها وهو : أن صديق عدوي عدوي .

أما الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية ، فيقوم الحجاج فيها على إدماج الجزء في الكل على اعتبار أن الأول مندمج في الثاني ، ويكون هذا الاندماج والارتباط مأخوذين من وجهة نظر كمية .

2- الحُجَج المؤسسة على بنية الواقع : وهي حُجج تستند إلى الحُجج شبه المنطقية للربط بين أحكام مسلمّ بها ، وأحكام يسعى الخطباء إلى تأسيسها وتثبيتها وجعلها مقبولة ومسلحاً بها ، وذلك يجعل الأحكام المسلمّ بها والأحكام غير المسلم بها عناصر تنتمي إلى كل واحد يجمع بينها ، بحيث لا يمكن التسليم بأحدها من غير أن يسلم بالآخر ، ومن هنا وصفها لكونها حججاً اتصالية أو قائمة على الاتصال، ويمثل الحجاجيون لهذا النوع بوجوه الاتصال التتابعي بوصفها تضم مظاهر الاتصال السببي كالربط بين بعض الأحداث المتتابعة بوساطة علاقات سببية او استخلاص نتيجة ما بسبب حصول حدث أدى إليها ، أو التكهن بما سبق لو أن الحدث المسبب قد حصل ، ويمثلون لذلك على الترتيب بـ : اجتهد فنجح – نجح لأنه اجتهد . هو يجتهد فسينجح . وإلى وجوه الاتصال التتابعي تنتمي حُجج التبدير وحُجج الاتجاه. أما بخصوص حُجج السلطة ، فقد اتفقت الاتجاهات الحجاجية

على أن النسبة الكبرى من قيمة القول إنما يكتسبها من سلطة قائلة ومكانته وقيمته ، فالعادة في الحجاج أن تكون الحجة بالسلطة الحجة الوحيدة فيه، وتاتي هذه الحجة مكملة لحجاج يكون غنياً يحجج أخرى غير حجج السلطة ، وكثيراً ما نعمد إلى الثناء على هذه السلطة قبل استعمالها حجة في كلامنا ، لكي نكسبها مصداقية أكبر. أما العلاقة الرمزية فتقوم على التلازم بين أطرافه ، وهو تلازم قائم على علاقتي المشاركة والتبرير لا العلاقة الاعتباطية . ويشار في هذا المجال إلى أن استعمال هذا النوع بالذات من العلاقات الحجاجية لا يمكن توظيفه في أي مقام ، لان إدراك العلاقة بين أطراف الرمز يمثل لبّ الفكرة الحجاجية ، في حين أن هذه العلاقة لا يمكن أن يعرفها إلا أفراد المجتمع الذي صاغ ذلك الرمز ، الأمر الذي يؤكد أن للرموز خصائصها الثقافية الحضارية البالغة الخصوصية ، مثلما أن بعُدها الجوهري بعد لا عقلاني .

3- الحُجج المؤسّسة لبنية الواقع . وتقوم على مستويين أساسيين : أولهما : تأسيس الواقع بوساطة الحالات الخاصة كالمثل Lexemple الذي يؤتى به لتأكيد الفكرة المطروحة ، ويلحق بالمثل الاستثمار بالنصوص ذات القيمة السلطوية على المخاطب كالمقولات الدينية أو كلمات القادة الخالدين في نظر الجماعة المقصودة لان قيمة الشخص المعترف بها سلفاً من قبل السامعين يمكن اعتبارها مقدمة حجاجية مُهمّة توظف في تحقيق العديد من النتائج ، ومن هنا تكون مهمة المثل برهانية في حين تكون مهمة الاستشهاد توضيحية .

أما ثانيهما فيقوم على استخدام التمثيل Anatyie استخداماً حجاجياً ، لانه في الحقيقة غير قائم على علاقة تشابه بل هو ((تشابه علاقة)) . فضلاً عن أن وجه الشبه فيه عقلياً هو أمر يمنح المخاطب متعة كبيرة وتسليماً بالفرضيات المقدّمة وذلك عندما يكشف دقة وجه الشبه وطرافة الاستدلال بالتمثيل ، هذا إضافة إلى أن التوظيف الجيد للتمثيل في بنية حجاجية ما ، من شأنه أن يُضفي على مجمل عناصرها – حتى تلك غير الداخلة في بنية التمثيل – دلالة كبيرة لم يكن لها في حالتها الانفرادية ، وينبه (بيرلمان)) إلى أن التمثيل في الحجاج يختلف عنه في الإبداع ، ففي حين لا شيء يمنع من أن يطول التمثيل ويمتد في مجال الإبداع ، يُطلب من التمثيل في مجال الحجاج أن يلتزم وجه معين وإلا فقد طاقته الاقتناعية .

ثانياً/ الطرائق الانفصالية في الحجاج :- لا يقع هذا الفصل الا في العناصر التي تؤلف وحدة واحدة يتم تجزئتها لغايات حجاجية ، ولما كانت الوسائل اللغوية في كل نص حجاجي هي سداه ولحمته ، اصبحت اللغة في الحجاج وسيلة لفرض سلطة على الآخرين من نوع استدراجهم إلى الدعوى المعبّر عنها وإقناعهم بصدقيتها عبر الاستناد إلى أنواع مختلفة من البنى منها بنية التكرار التي تضم – تكرار الشكل تكرار

المضمون. وبنية التوازي ونقصد به الربط بين عناصر متساوية في الحال ، عنصر سابق وعنصر آخر متصل به أو لاحق . كل من هذين العنصرين حر ، أي له كيانه الوظيفي الكامل . وتنضوي الأدوات اللغوية تحت الطرائق الانفصالية وتشتمل على :

1- ألفاظ التعليل :- تعد ألفاظ التعليل من الادوات اللغوية التي يستعملها المرسل لتركيب خطابه الحجاجي ، وبناء حججه فيه ، ومنها المفعول لأجله ، وكلمة السبب ، ولان إذ لايستعمل المرسل أيّ أداة من هذه الادوات الا تبريراً أو تفعيلاً، بناء على سؤال ملفوظ أو مفترض .

2- الوصف :- ويشمل عدداً من الأدوات اللغوية منها الصفة واسم الفاعل واسم المفعول . والصفة تمثل أداة في الفعل الحجاجي وعلامة عليه ، فلا يقتصر المرسل على توظيف معناها المعجمي أو تأويله ، بل ينبغي التقويم والتصنيف واقتراح النتائج التي يريد حصولها أو فرضها وهذا ما يعطيها الطواعية والمرونة التي هي في صلب خصائص الخطاب الطبيعي في الممارسة الحجاجية، ليمارس المرسل أكثر من فعل واحد ، بالتصنيف وبتوجيه انتباه المرسل أليه إلى ما يريد ان يقنعه في حجاجة . فالصفات تنهض بدور حجاجي يتمثل في كون الصفة إذ نختارها تجلو وجهة نظرنا وموقفنا من الموضوع ويبدو هذا خاصة حين نجد صفتين متناظرتين ، ولكنهما متعارضتان .

3- الاستعارة : تعلو الاستعارة الاستعمالات الحقيقية في معظم الاحيان ، فالمرسل يفضلها في استعمالاته لثقته بأنها أبلغ من الحقيقة حجاجياً ، وهذا ما يرجع تصنيفها ضمن أدوات السلم الحجاجي أيضاً ، والاستعارة الحجاجية هي ((تلك الاستعارة التي تهدف إلى احداث تغيير في الموقف الفكري او العاطفي للمتلقي))[32] وهو ما يود المرسل تحقيقه ومن أمثلة الاستعارة الحجاجية قول عروة بن الورد :

ثعالب في الحرب العوان ، فإن تبــخ

وتنفرج الجلى ، فإنهـــم الأســـد

فاستعارات عروة هي استعارات حجاجية ، لانه يصف قومه في حالتي الحرب والسلم . ولا يمكن أن يصفهم إلا بالوصف الذي يجعلهم في مرتبة أعلى من غيرهم . واختيار مستعاراً منه يجّسد هذه الصفات ، فاورده بلفظه في خطابه . ويمكن القول أن ((قوّة الحجاج في المفردات تبدو في الاستعمالات الاستعارية أقوى مما فيه عند استخدامنا لنفس المفردة بالمعنى الحقيقي إن للاستعارات ذات الدور الحجاجي خاصية ثابتة ، فالسمات الدلالية المحتفظ بها في عملية التغيير الدلالي الذي تقوم عليه هذه الاستعارات هي سمات قيمية)) [33] .

ويفترض طه عبد الرحمن عدداً من الافتراضات لبناء النظرية التعارضية للاستعارة في الحجاج ، وهي :

1- أن القول الاستعاري قول حواري ، وحواريته صفة ذاتية له .
2- أن القول الاستعاري قول حجاجي ، وحجاجيته من الصنف التفاعلي تخصه باسم التحاج ، لأن التسليم بما فيه نظر ، إذ يكيفها المرسل وفق إرادته ويختار من الالفاظ مراده دون قيد .
3- أن القول الاستعاري قول عملي ، وصفته العملية تلازم ظاهرة البياني والتخييلي.

وتكمن فعالية الاستعارة في التناسب مع ما يقتضيه السياق ، فهي تمثل أبلغ وأقوى الآليات اللغوية ، ويظهر التوجه العملي للاستعارة في ارتكازها على المستعار منه ، إذ تكون الاستعارة بذلك أدعى من الحقيقة لتحريك همة المرسل إليه إلى الاقتناع ، إذ يهدف إلى تغيير المقاييس التي يعتمدها المرسل إليه في تقويم الواقع والسلوك ، وإن يتعرف على ذلك من المرسل ليكون سبب القبول والتسليم . وليس التخييل أو الصفعة اللفظية . وخلاصة الأمر أن الاستعارة من الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم للوصول إلى أهدافه ، بل إنها من الوسائل التي يعتمدها بشكل كبير جداً ، ما دمنا نسلم بفرضية الطابع المجازي للغة الطبيعية .

تتسم التقنيات الحجاجية اللغوية (بعدة سمات ، نذكر بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر :

أ- إنها سياقية : فالعنصر الدلالي الذي يقدمه المتكلم باعتباره يؤدي الى عنصر دلالي آخر ، فإن السياق هو الذي يصيره حجة ، وهو الذي يمنحه طبيعة الحجاجية ، ثم إن العبارة الواحدة ، قد تكون حجة أو نتيجة ، أو قد تكون غير ذلك بحسب السياق .

ب-إنها نسبية : فلكل حجة قوة حجاجية معينة ، فقد يقدم المتكلم حجة ما لصالح نتيجة معينة ، ويقدم خصمه حجة مضادة أقوى بكثير منها ، وبعبارة أخرى هناك الحجج القوية والحجج الضعيفة والحجج الاوهى والاضعف .

ت- إنها قابلة للإبطال : وعلى العموم ، فإن الحجاج اللغوي نسبي ومرن وتدريجي وسياقي بخلاف البرهان المنطقي والرياضي الذي هو مطلق[34].

السلم الحجاجي : يتمثل صلب الفعل الحجاجي في تدافع الحجج وترتبها حسب قوتها ، إذ لا يثبت غالباً إلا الحجة التي تفرض ذاتها على أنها أقوى الحجج في الملفوظ ، لذا ، يرتب المرسل الحجج التي يرى أنها تتمتع بالقوة اللازمة التي تدعم دعواه ، وهذا الترتيب هو ما يسمى بالسلم الحجاجي ، ويمكن تعريفه بأنه عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة تراتبية وحرفية بالشرطين التاليين :

1- كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته ، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه .
2- كل قول كان في السلم دليلاً على مدلول معين ، كان ما يعلوه مرتبة أقوى عليه .

فاذا أخذنا الأقوال الآتية :

1- حصل أحمد على الشهادة الثانوية .

2- حصل أحمد على شهادة البكالوريوس

3- حصل أحمد على شهادة الدكتوراه .

فهذه الجمل تتضمن حججاً تنتمي إلى نفس الفئة الحجاجية وتنتمي كذلك إلى نفس السلم الحجاجي ، فكلها تؤدي إلى نتيجة مضمرة من قبيل (كفاءة احمد) أو (مكانته العلمية) ولكن القول الأخير هو الذي سيرد في أعلى درجات السلم الحجاجي ، وحصول أحمد على الدكتوراه هو بالتالي أقوى دليل على مقدرته وعلى مكانته العلمية ويمكن الترميز لهذا السلم كما يلي :

ب – جـ – د = ن النتيجة ن = الكفاءة العلمية

د ↑ – الدكتوراه

ج ↑ – البكالوريوس

ب ↑ – الشهادة الثانوية

وللسلم الحجاجي قوانين ثلاثة [35] ، وهي :

1- قانون الخفض : ومقتضاه : أنه إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم ، فان نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها ، فعندما نستعمل جملاً من قبيل :

- الجو ليس بارداً .
- لم يحضر كثير من الأصدقاء إلى الحفل.

فنحن نستبعد التأويلات التي ترى أن البرد قارس وشديد (المثال الثاني) أو أن الاصدقاء كلهم حضروا إلى الحفل (المثال الثاني) . وسيؤول القول الأول على الشكل التالي :

- إذا لم يكن الجو بارداً ، فهو دافيء أو حار .

وسيؤول القول الثاني كما يلي :

- لم يحضر إلا القليل منهم إلى الحفل .

2- قانون القلب : ومقتضى هذا القانون : أنه إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في التدليل على مدلول معين ، فإن نقيض الثاني أقوى من نقيض الأول في التدليل على نقيض المدلول . ولنوضح هذا بالمثالين التاليين :

- حصل زيد على الماجستير ، وحتى الدكتوراه .
- لم يحصل زيد على الدكتوراه ، بل لم يحصل على الماجستير .

فحصول زيد على الدكتوراه أقوى دليل على مكانته العلمية من حصوله على الماجستير في حين أن عدم حصوله على الماجستير هو الحجة الأقوى على عدم كفاءته من عدم حصوله على شهادة الدكتوراه .

3- قانون النفي ومقتضى هذا القانون : اذا كان القول دليلاً على مدلول معين ، فإن نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله . ويمكن أن نمثل لهذا بالمثاليين التاليين:

- زيد مجتهد ، لقد نجح في الامتحان .
- زيد ليس مجتهداً ، إنه لم ينجح في الامتحان .

فاذا قبلنا الحجاج الوارد في المثال الأول ، وجب أن نقبل الحجاج الوارد في المثال الثاني .

الهوامش

1- ينظر : الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل : 272 .

2- تحليل الخطاب المسرحي 25 .

3- ينظر : التداولية والحجاج 20 .

4- ينظر : التحاجج 56 .

5- سلطة الكلام وقوة الكلمات (بحث) 142-143 .

6- الحجاج في القرآن 135 .

7- مفهوم الحجاج (بحث) 56 .

8- ينظر : استراتيجيات الخطاب 461.

9- م. ن 461.

10- ينظر : الحجاج والحقيقة 90- 91 ، الحجاج في البلاغة المعاصرة 108 .

11- ينظر : النص الحجاجي العربي 43 وما بعدها ، إذ أفاض في بسط تعريفات الحجاج .

12- الحجاج في القرآن : 27 .

13- ينظر : م. ن 27 .

14- ينظر : م. ن 29 .

15- ينظر : التحاجج 9 .

16- ينظر : الحجاج في القرآن 9 .

17- ينظر: التداولية والحجاج 21 .

18- اللسان والميزان 226 .

19- ينظر: استراتيجيات الخطاب 457.

20- من تجليات الخطاب البلاغي 8 .

21- م.ن 102 .

22- م.ن 103 وينظر : الحجاج في البلاغية المعاصرة 276 .

23- ينظر: النص الحجاجي العربي 42-44 .

24- ينظر: الحجاج والحقيقة 64 .

25- ينظر: التداولية والحجاج 15 ، الحجاج في البلاغة المعاصرة 103 .

26- الحجاج في البلاغة المعاصرة 102 .

27- ينظر: م. ن 134 .

28- م.ن 111.

29- ينظر: التحاجج 64 .

30- البلاغة والاسلوبية 17.

31- ينظر : التداولية والحجاج 19 .

32- اللغة والخطاب 134 .

33- الاستعارة والحجج (بحث) 87.

34- ينظر: في كل ذلك : الحجاج والحقيقة 127 وما بعدها ، الحجاج في البلاغة المعاصرة 127 ، استراتيجيات الخطاب 476 .

35- ينظر : التحاجج 60 .

المصادر والمراجع

1- استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط1 2004م .

2- الاستعارة والحجج (بحث) ، ميشيل لوجيرن ، مجلة المناظرة ، المغرب ، السنة الثانية ، العدد 4 ، 1991.

3- التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه تنسيق حمو النقاري ، المملكة المغربية ، جامعة محمد الخامس ط1 ، 1427هـ / 2006م .

4- البلاغة والاسلوبية ، هنريش بليث ، ترجمة وتقديم وتعليق محمد العمري ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1989م .

5- التداولية والحجاج . صابر الحباشة ،دار صفحات، دمشق ط1 2008.

6- الحجاج في البلاغة المعاصرة ، بحث في بلاغة النقد المعاصر د. محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط1 ، 2008 م .

7- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية عبد الله صوله ، دار الفارابي ، ط2 ، 2007م .

8- الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل (بحث في الأشكال والاستراتيجيات) د. علي الشبعان ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط1 / 2010 م .

9- سلطة الكلام وقوة الكلمات (بحث) ، أبو بكر العزاوي ، مجلة المناهل ، المغرب ، سنة 25 عدد 62- 63 ، 2001م .

10- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي ، ط2 ، 1998 م .

11- اللغة والخطاب ، عمر امكان ، افريقيا الشرق ، 2001م .

12- من تجليات الخطاب البلاغي ، حمادي صمود ، تونس ، دار قرطاج ، ط1 ، 1999م .

13- مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة (بحث) محمد سالم ولـــد محمد الامين ، عالم الفكر ، الكويت ، المجلد الثامن والعشرون ، العــدد 3 يناير مارس 2000م .

14- النص الحجاجي العربي ، دراسة في وسائل الاقناع (بحث) محمد العبد ، فصــول ، العدد

60 ، صيف، خريف 2002 م .